

مجلة جامعة أم القرى

مجلة فصلية للبحوث العلمية المحكمة

السنة الخامسة العدد السابع العام ١٤١٣هـ/١٩٩٢-٩٣م


٣٠٠٠٠٠٧-٥

جماعات الفرسان الدينية الإسبانية وحروبها مع المسلمين في الأندلس

د . سعد بن عبد الله البشري*

* حصل على البكالوريوس في التاريخ الإسلامي من جامعة الملك عبد العزيز عام ١٣٩٨ هـ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ـ حصل على الماجستير عام ١٤٠٢ هـ بتقدير ممتاز ـ نال درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي عام ١٤٠٦ هـ بتقدير ممتاز ـ عضو في إتحاد المؤرخين العرب ـ يعمل حالياً أستاذاً مشاركاً بقسم التاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

كان قيام جماعات الفرسان الدينية الاسبانية إبان الحكم الاسلامي في الأندلس برهانا ساطعا على مدى تأثر الأسبان النصارى بالحياة الاسلامية القائمة في الجزية الايبيريه آنذاك .

ويبدو أن ملوك وحكام الممالك النصرانية أدركوا أهمية الدور الذي اضطلعت به جماعات المرابطين المسلمين ، أو المجاورين في حماية الحدود الاسلامية بكل شجاعة وتضحية وفداء ، يحدوهم في سبيل ذلك ايمانهم العميق بأهمية احراز النصر المبين أو الاستشهاد في سبيل الله ، وادرك النصارى آنذاك أهمية العامل الروحي في قوة وتماسك الجبهة الاسلامية ، وهداهم التفكير إلى السير على خطى المسلمين في انشاء جماعات دينية محاربة ، تستلهم العزم والفداء والشجاعة من ايمانها بدينها ، وما يعد به من ثواب وغفران ، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر على الساحة العسكرية الاسبانية عدد من جماعات الفرسان الدينية ، أو ماعرف بالفرسان الرهبان ، وكان أشهرها جماعة فرسان قلعة رباح ، وفرسان شنت ياقب ، وذلك خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وكانت أولى مهمات هذه الجماعات حراسة الحدود النصرانية من جهة ، والاسهام في شن الهجمات على بلاد المسلمين من جهة أخرى ، وما من شك أن هذه الجماعات قامت بدور فعال في تقوية الجبهة النصرانية . ومن ثم احراز انتصارات ومكاسب على حساب المسلمين في الأندلس . وفي هذا البحث المتواضع نلقي بعض الأضواء على دور تلك الجماعات ، وما أسهمت به من جهود في محاربة مسلمي الأندلس . والقضاء على سيادتهم بها ، وكان أمر الله مفعولا .

تميز القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي في الأندلس بظهور جماعات الفرسان الدينية النصرانية ، أو ما يعرف بالفرسان الرهبان ، وكان ذلك نتيجة للتطورات العسكرية والسياسية على الساحة النصرانية ، والتي أعقبت تنامي القوى النصرانية، واتساع نفوذها على حساب المسلمين، فأشرأبَّ النصارى إلى القضاء على دولة الاسلام ، وتصفية الوجود الاسلامي نهائيا من الجزيرة الايبيرية ، وماكان للأسبان أن ينجحوا في حشد قواهم لتحقيق تلك الغاية دون تعميق الروح الصليبية في نفوس شعوبهم وجنودهم .

كان في مقدمة الساعين إلى ترسيخ العامل الروحي وتوظيفه في الصراع العسكري بين الجبهتين النصرانية والاسلامية ، المنظمات الديرية المختلفة . وأهمها الأديرة الكلونية ، نسبة إلى دير كلوني في جنوب فرنسا ، الذي أنشأه وليم التقي دوق اكيتانيا ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م . وكانت أحوال العالم الأوروبي قد تغيرت منذ مطلع القرن العاشر الميلادي ، وماأعقبه بفضل الحماس الديني الذي نشرته الحركات الديرية الجديدة ، وكان هدفها تقوية الجانب الروحي من الحياة الانسانية ، ومعالجة حالة التردي التي ألمت بالمجتمع الاقطاعي الأوروبي ، والعمل على دعم المعسكر النصراني ضد الأخطار المحدقة به[١] .

شجع الرهبان الكلونيون الأمراء والأهالي في جنوب فرنسا على الانخراط في الحملات الصليبية ضد مسلمي الأندلس ، وذلك منذ أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وكان الرهبان يرون في ذلك ما يحقق تطلعاتهم الدينية سواء على صعيد النتائج المرتقبة من الحرب الصليبية ، أو ما سيكون في ذلك من عون لهم على نشر نظامهم الديني في اسبانيا[٢] .

لم تكن الأديرة الكلونية هي الوحيدة على صعيد الدعم والتشجيع في محاربة المسلمين في الأندلس ، بل كان إلى جانبها منظمات دينية أخرى ، مثل منظمة أو

---

(١) إبراهيم علي طرخان : المسلمون في فرنسا وايطاليا . بحث بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ج ٢٣ ، الجزء الثاني ص ١٢٧ ، وانظر بالتفصيل عن النظام الكلوني .
نورمان كانتور : التاريخ الوسيط ، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده ، ص ٣٠٣ .
(٢) قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ، ص ٤٣ .

حركة الكارتوزية ، نسبة إلى مدينة كارتوزيا قرب جرنوبل بفرنسا ، وقد أسسها برونو الكولوني عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكان كاهنا لمدينة رايمس والحركة البريمو نستراتية ، نسبة إلى مدينة بريمونتريه بابرشيه لاؤن بفرنسا ، وقد أنشأها القديس نوربير سنة ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م .

ومما يلفت النظر أن تلك الحركات الديريه هي مؤسسات دينية فرنسية لم يمنعها الوضع الجغرافي ، أو ماكان يفترض فيها من ميل إلى التنسك والرهبنة ، من تسخير طاقاتها وجهودها في ميدان النضال ضد المسلمين ، والعمل على القضاء على كيانهم السياسي والحضاري في الأندلس ، وبذلك احدثت الحركات الديريه نقلة هائلة في طبيعة الفكر والسلوك الديني الديري ، إذ أصبحت مقارعة ومنازلة المسلمين من أولى مهمات تلك الحركات الديرية وأسمى غاياتها .

ومن أهم الحركات الديرية ـ غير ماأشرنا إليه ـ حركة السترشيان ، التي أسسها روبرت رئيس ديرموليم ٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م ويبدو أن أصحاب هذه المؤسسات الدينية كانوا من أكثر المتحمسين لشن الحروب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس ، اذ مالبثت هذه المنظمة أن أنشأت لها مركزا في أسبانيا ٥٤٤هـ/١١٤٩م حيث نظمت فيه قوة حربية للقيام بواجب الحرب المقدسة ، والعمل على نشر نظام الحركة السترشيانية في أسبانيا ، وتتميز أنظمة هذه الحركة بحب العمل والصبر والجلد على أدائه ، أكثر من ميلها إلى العبادة والتنسك ، وقد امتد نشاط الحركة إلى البرتغال فانشأت لها أديرة في منطقة الحدود بين المسلمين والنصارى ، وساهم كثير من رهبانها في حراسة الحدود ، وكطلائع في الحرب[٢] .

وهكذا يتضح لنا أهمية ماقامت به تلك الحركات الديرية من مساع حثيثة في سبيل تأصيل روح الحماس الديني في النضال ضد المسلمين ، وكان لذلك أكبر الأثر في تقوية الجبهة النصرانية ، وهو مادفع الاسبان إلى التفكير في انشاء منظمات أو

---

(١) إبراهيم طرخان : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٢٨ ـ إبراهيم علي طرخان : المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

جماعات دينية محاربة ، تستلهم العزم والتضحية والفداء من سلوك الرهبان والقساوسه ، الذين صبغوا الصراع بين الجبهتين الاسلامية والنصرانية بصبغة دينية ، ورأوا في محاربة المسلمين في الأندلس حربا صليبية مقدسة ، تحشد لها الطاقات ، ويوفر لها كافة ألوان الدعم .

وتجدر الاشارة إلى أن كثيرا من المصادر والمراجع تشير إلى مساهمة الأساقفة والرهبان والمطارنة في قتال المسلمين الأندلسيين ، وان أولئك كان لهم دور فعال في تأجيج الحرب الصليبية وتوسيع نطاقها ، وأن الكثير منهم ـ أي من رجال الدين النصارى ـ سقطوا في ميادين الحرب بعد أن فضلوا حياة القتال على حياة التنسك والرهبنة[١] .

اعتزم ملك اراغون الفونسو الأول أن ينشيء جماعة فرسان دينية ، وذلك في وقت لم تكن قد قامت في المشرق أية جماعة دينية محاربة ، ويبدو أنه وضع نصب عينيه ماشاهده وسمع به لدى المسلمين ، الذين عرفوا نظام المرابطة وحراسة الثغور ـ وهي حدود بلاد المسلمين مع الكفار ـ عن طريق جماعات دينية نذرت نفوسها في سبيل الله دفاعا عن الدين والوطن ، وعلى الرغم من أن النصارى الاسبان قد ألفّوا فيما بينهم جماعات من الفرسان ، ولكنها لم تكن تنتظم في جمعية حربية منظمة ، ولم يقتبسوا ذلك إلا عن طريق المسلمين المرابطين في الثغور[٢] .

كان الرباط عنصرا أساسيا في الجهاد عرفه أهل الأندلس والمغرب ، ـ وهي بلاد تكثر فيها الثغور الاسلامية ـ قبل أن تعرفه الفرق العسكرية النصرانية بقرون

---

(١) انظر كأمثلة على ذلك : ابن عذارى : البيان المغرب ، قسم الموحدين ص ٢٦٣ ومابعدها : المراكشي : المعجب ص ٤٥٤ ـ الحميري : الروض المعطار ص ٦١٤ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٢٧ ص ٢٣٧ ، يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص ٣٥٨ ومابعدها ـ خليل السامرائي : علاقات المرابطين بالمالك الأسبانية والدول الاسلامية . ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ وص ٢٥٤ ، هشام أبو رميله : علاقات الموحدين بالمالك النصرانية والدول الاسلامية في الأندلس ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في هد المرابطين والموحدين ج ٢ ، ص ٢٦٤ .

عدة . وفي أسبانيا نجد كثيرا من المواضع والأماكن التي من أسمائها Rabita, Rabida ولفظ رباط العربي دخل اللغة الاسبانية ، ومنه اشتقت arrobda, arrebatar, rebato وكلها تعني المرابطة للقتال والحرب ، ووجود مثل هذه الألفاظ في الإسبانية دليل على شيوع مدلولها بين النصارى الإسبان ، وعليه فان ظهور الفرق العسكرية ، أو الجماعات الدينية المحاربة منذ القرن الثاني عشر أمر طبيعي ، انبثق عن التأثير الساحق الذي مثلته الحياة الاسلامية على أرض الأندلس(١) .

ولكن كيف تم ظهور الجماعات الدينية المحاربة ، أو جماعات الفرسان الدينية في إسبانيا ؟

للإجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نعود إلى الأحداث السياسية والعسكرية التي تمت في أوائل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، ففي ذلك الوقت طارت شهرة ملك اراغون الفونسو المحارب بسبب ماحققه من انجازات عسكرية كبيرة على حساب المسلمين ، ويأتي في مقدمة ذلك نجاحه الباهر في الاستيلاء على مدينة سرقسطه سنة ٥١٢ هـ / ١١٨ م ، وذلك في حملة صليبية ضخمة شارك فيها الآلاف من الفرنسيين وجموع كبيرة من الأساقفة والقساوسة والرهبان ، وقد أدرك الفونسو المحارب أهمية العامل الديني في حشد القوى والطاقات فسعى إلى انشاء جماعة دينية محاربة ، تقوم على الدفاع عن حدود مملكة اراغون ، وأنشأ لذلك قلعة مونريال ٥١٤ هـ / ١١٢ م . بيد أن مشروعه الطموح لم ينجح لافتقاره إلى الفرسان المؤهلين للقيام بتلك المهمة ، على أن الفونسو لم يصرف النظر عن ذلك الهدف ، فقد هداه التفكير أخيرا إلى إنشاء فرع للفرسان الداويه في أسبانيا(٢) ، وكان هؤلاء قد أسسوا جماعتهم في فلسطين ابان الحروب الصليبية ، وأبدوا مهارة قتالية في حروبهم مع المسلمين في بلاد الشام(٢) .

---

(١) لطفي عبد البديع : الاسلام في أسبانيا ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .
(٢) يوسف أشباخ : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

ونلاحظ في سيرة الكونت ريموند برنجار الثالث حاكم برشلونة ، أنه مال في آخر حياته إلى الزهد والتنسك ، وآثر أن ينخرط في سلك فرسان الداويه ، وكان هؤلاء قد قدموا قبيل ذلك إلى برشلونة ، حيث أسسوا بها فرعا لجماعتهم ، وقد استقبلهم الكونت ريموند بترحاب بالغ ، ومنحهم قلعة جرانينا على مقربة من لارده ، وذلك ليسهموا بجهودهم في الاستيلاء على مدينة لارده ، وانتزاعها من أيدي المسلمين ، ولما توفي الكونت ريموند الثالث في ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م ، خلفه عل امارة برشلونه ابنه ريموند الرابع فسعى إلى تحقيق خطوات واسعة في سبيل توطين أعداد كبيرة من فرسان الداوية ، وتوسيع نشاطهم في امارته ، فبعث إلى كبير الداويه في بيت المقدس يطلب منه أن يرسل عددا منهم إلى امارته ، فاستجاب له كبير الداويه ، وبعث اليه بجمع من فرسان الداويه ، حيث أسس لهم ريموند الرابع أول دير في أسبانيا لهذه الجماعة ، وكون من هؤلاء جمعية فرسان الداويه ببرشلونه (قطالونيا) ، وذلك بصفة رسمية في مجلس ديني عُقد برئاسة المطران اولاجير ، ومنح هؤلاء الفرسان قلعة بربيره في المرتفعات المشرفة على لارده وطرطوشه سنة ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ م[1] .

وأظهر فرسان الداويه حماسا بالغا في أداء المهام الموكلة اليهم في الدفاع عن مملكة اراغون ، وصد الهجمات الاسلامية عنها ، ويبدو أن الفونسو المحارب لمس مدى أهمية الدور الذي اضطلع به فرسان الداوية في حماية المناطق النصرانية ، ولهذا أقدم في وصيته على تخصيص ثلث مملكته لفرسان الداويه، ورغم ذلك لم ينالوا هذا النصيب بعد وفاة الملك ، بسبب أن الشعب الارغوني ثار على تقسيم المملكة ، وعُقد اجتماع بين الداويه والسلطة في اراغون على عهد ريموند برنجار ، لحل الخلاف بين الطرفين ، وذلك سنة ٥٣٨ هـ ١١٤٣ هـ ، وقد انتهى الاجتماع إلى قرارات تنص على أن يمنح فرسان الداويه نصيبا معينا في المدن والمناطق التي انتزعت من المسلمين ،

(١) محمد عنان : المرجع السابق ج ١، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢ ـ أشباخ : المرجع السابق . ج ١، ص ١٨٤ .

مثل وشقه وبربشتر وقلعة أيوب وسرقسطه وغيرها ، وأن يعفوا من الخضوع لقضاء الملك ، وفي مقابل ذلك يتعهد الفرسان بحماية الحدود النصرانية[١] .

ونظرا للنجاح الذي أحرزه فرسان الداويه في مملكة اراغون ، فقد أبدى ملوك قشتاله والبرتغال استعدادهم للتعاون مع فرسان الداويه ، وتسهيل كل ما من شأنه أن يدفعهم إلى الاقامة والاستيطان في بلادهم ، فقدمت اعداد كبيرة منهم إلى مملكتي قشتاله والبرتغال ، وعُهد اليهم بالدفاع عن الحصون والقلاع المجاورة للمسلمين ، مقابل حصولهم على نصيب وافر من الأراضي[٢] .

في خلال الفترة التي اضطربت فيها الأندلس على المرابطين في أواخر عهدهم ، نجح ملك قشتاله الفونسو السابع في الاستيلاء على عدد من الحصون والقلاع الاسلامية ، ومنها قلعة رباح ، وعهد بالدفاع عن هذه القلعة إلى فرسان الداويه ، وظل هؤلاء على نشاطهم الحربي في مهاجمة البلاد والمناطق الاسلامية القريبة من القلعة من جهة ، والدفاع عن القلعة من جهة أخرى ، ولما تم للموحدين القضاء على المرابطين وذلك سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م ، بسطوا سيادتهم على ماكان تحت أيدي المرابطين ، وسعوا إلى استرداد ماستولى عليه النصارى من القلاع والحصون ، ففي سنة ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م هاجم الموحدون قلعة رباح ، وكان هجومهم عنيفا فلم يقو فرسان الداويه على مواصلة الدفاع عن القلعة ، وبعثوا على عجل إلى ملك قشتاله يطلبون مساعدته ، ويبدون عدم استطاعتهم المحافظة طويلا على القلعة ، وكان في مدينة طليطله آنذاك أحد الرهبان المتحمسين لمقاتلة المسلمين ، ويدعى رايموند رئيس دير فتيرو ، وكان يشاركه حماسه أحد الرهبان الفرسان ، ويدعى ديجو بلاسكيث ، فسألا الملك سانشو أن يعهد اليهما بحماية القلعة ، فاستجاب لهما الملك وأيدهما يوحنا مطران طليطله ، وأخذ الراهب ريموند

---

(١) يوسف أشباخ : المرجع السابق . ج ٢، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص ٥٤٨ . وانظر شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

يلقي خطبه وعظاته الدينية للدفاع عن القلعة أمام زحف المسلمين ، ووعد من يشارك في ذلك بالمغفرة ، فاجتمع له أثر ذلك عشرون الف مقاتل ، وكميات هائلة من المؤن والأسلحة والدواب ، فسار بهم ريموند إلى القلعة ، وكانت هذه القوة سببا رئيسيا في صمود القلعة وحمايتها من السقوط في أيدي الموحدين ، وعقب ذلك ألف ريموند وصاحبه ديجو من هؤلاء المقاتلين المتحمسين جمعية دينية محاربة . أطلق عليها جمعية فرسان قلعة رباح ، وذلك سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وسوف نتحدث عنها بالتفصيل لاحقا .

وتجدر الاشارة إلى أن فرسان الداوية رغم انسحابهم من قلعة رباح ، إلا أنهم ظلوا زمنا طويلا يقدمون مساعدات جلى للممالك الإسبانية في حروبها مع المسلمين ، ويمكن أن نشير بوجه عام إلى أن هؤلاء الفرسان كان لهم نشاط فعال في جميع المعارك الكبرى في الأندلس ، اذ قاموا بالمشاركة في قتال المسلمين في موقعة الأرك التي وقعت بين الموحدين بقيادة الخليفة يعقوب المنصور ، وجيوش قشتاله بقيادة الملك الفونسو الثامن ، وذلك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٤ م . والتي أسفرت عن نصر كبير للمسلمين[١] .

كان بيدرو الثاني ملك اراغون شديد الاهتمام بتوسيع مملكته على حساب المسلمين ، فقام سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م بغزو أراضي بلنسية ونجح بمساعدة فرسان الداويه في الاستيلاء على سلسلة من الحصون والقلاع وأهمها حصن الديموس[٢] .

وإذا كان فرسان الداوية قد نالوا نصيبهم من الفشل والخذلان في موقعة الأرك فقد كان لهم نصيب وافر من الانتصار الذي حققه النصارى على الموحدين في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ، وكانت الجيوش النصرانية تتألف من ثلاثة أقسام الأول : من الصليبيين الأوربيين وعددهم مائة ألف ، الثاني : من قوات مملكة اراغون وفرسان الداويه ، والثالث : من قوات مملكة قشتاله ومملكة ليون ومملكة البرتغال ، وفرق كثيرة من فرسان الجماعات الدينية المحاربة ، وتعد هذه

---

(١) هشام أبو رميله : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الأندلس . ص ٢٦٠ .

(٢) محمد عنان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٤ - ٦٠٥ .

الموقعة التي تجمع فيها أكبر حشد صليبي في تاريخ الأندلس ، وشارك فيها جموع كبيرة من الأساقفة الرهبان ، جنبا إلى جنب مع الجنود والفرسان ، تعد أقسى ضربة حلت بالمسلمين ، وكانت نذيرا بزوال دولتهم[١] .

وفي حوالي سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م توفي ملك البرتغال سانشو الأول ، فخلفه على الحكم ابنه الفونسو الثاني ، وقد استهل حكمه بخلاف نشب بينه وبين اخواته ، اذ كان والده سانشو قد أوصى لهن ببعض الأراضي والقلاع فرفضن الاعتراف بسيادة اخيهن سانشو ، وطلبن الحماية من البابا ، ونشبت الحرب بين الطرفين ثم تدخلت البابويه وحلت النزاع ، وذلك بأن يُعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، على أن تكون خاضعة لسيادة الملك ، ويُعطي دخلها للأميرات ، وصدر الحكم بذلك سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م[٢] .

ويلاحظ من خلال ذلك أن فرسان الداويه كان لهم مكانة كبيرة في مملكة البرتغال ، وكان لهم نشاط عسكري يتمثل كما سبق أن أشرنا في المحافظة على حدود المملكة وحماية حصونها وقلاعها المتاخمة للمسلمين ، وان فرسان الداويه كانوا يتمتعون بثقة السلطة الملكية والبابوية في آن واحد .

وفي المملكة التي شهدت انبعاث قوة ونشاط فرسان الداوية وهي مملكة اراغون ، قام نزاع بين رجال المملكة بعد وفاة بدرو الثاني وكان مثار النزاع اصرار سيمون دي مونفور ، وهو من كبار القادة ، على احتجاز دون خايمي ، وهو الملك المنتظر وكان آنذاك طفلا ، ولم يُخل سيمون سراح خايمي إلا بعد تدخل البابويه، وتم بعد ذلك اختيار استاذ فرسان الداوية جليم دي مونرادو وصيا على خايمي ، غير أن الفوضى والقلاقل مالبثت أن ثارت فكادت أن تعصف حرب أهلية بالمملكة ، وكان من الضالعين فيها كبير فرسان الداويه ، وكانت له أطماع ففرض على خايمي الاقامة الجبرية في قلعة منتشون ، وكان آنذاك في التاسعة من عمره غير أن انصاره مالبثوا ان انتزعوه من يد كبير فرسان الداويه ، وتمكن خايمي من اقرار الأوضاع لصالحه ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م[٣] .

---

(١) انظر : ابن عذاري : البيان المغرب قسم الموحدين ص ٢٦٣ - ٢٦٤ محمد عنان : عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) يوسف أشباخ : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٣) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

ويتضح لنا من خلال ذلك المكانة التي تبوأها فرسان الداوية في مملكة اراغون ، وماكان عليه كبيرهم أو أستاذ الجماعة من منزلة رفيعة ، هيأته لأن يكون وصيا على الملك في فترة من الفترات ، وهي مهمة لا يضطلع بها الا من يحتل الصدارة بين رجال البلاط وقادة المملكة .

وجه خايمي جهوده بعد أن استقرت له الأحوال نحو غزو الأراضي والمدن الاسلامية ، فبدأ بغزو جزر البليار ، حيث استولى على ميورقه ويابسه سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م وسنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ على التوالي ، ثم وجه همته للاستيلاء على مدينة بلنسيه ، وهي من أعظم قواعد الشرق فنهد اليها في جيش صليبي ضخم ، سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧م وكان في مقدمته جموع من فرسان الداوية ، وغيرهم من فرسان الجماعات الدينية الأخرى ، وبعد حصار طويل أبدى فيه المسلمون ألوانا من البسالة والتضحية واستمر ما يقارب ستة أشهر ، استسلمت المدينة ، فدخلها خايمي في صفر سنة ٦٣٦ م / اكتوبر ١٢٣٨ م[١] .

ولما سقطت بلنسيه ، حاول حاكمها المسلم الذي انتقل حسب معاهدة التسليم إلى مرسيه ، أن يعمل على تقوية دفاعاتها وتحصيناتها ، لتقف سدا قويا أمام زحف النصارى وتوسعهم الدائم ، غير أن هذا لم يمنع فرسان الداويه ، وغيرهم من القوى النصرانية ، أن تعبر نهر شقر ، وان تستولى على عدد من الحصون المنيعة ، تمهيدا لابتلاع المناطق الجنوبية من بلنسيه[٢] .

وتجدر الاشارة إلى أن جماعة فرسان الداوية المستقرة في مملكة قشتالة أُلغي نظامها ، وقُضي عليها ، على عهد الملك فرديناند بن سانشو (٦٩٥ - ٧١٢ هـ / ١٢٩٥ م - ١٣١٢ م) وكان السبب وراء ذلك هو اتساع نفوذ الداوية ، ومابلغوه من وجاهة وثراء ، حركت نوازع الحسد في قلوب النبلاء والقادة ، فاغروا الملك بهم ، واتهموهم بالالحاد والانحراف ، فأوقع بهم فرديناند ، وأحرق بعضهم ، ومزقهم شر ممزق[٣] .

---

(١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٧٥ - ٤٧٦ - محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ . ص ٤٤٤ .
(٢) يوسف أشباخ : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٢٥ .
(٣) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الأندلس . ص ١٤٥ .

وقبل أن نختتم الحديث عن فرسان الداويه ، أو فرسان المعبد ، نود أن نشير إلى أنه قام في مملكة ليون خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي جماعة فرسان دينية ، أُطلق عليها فرسان ترجاله / وسارت على نفس نظم ونهج فرسان الداوية[1] غير أن المصادر لم تمدنا بمعلومات وافية عن نشاط هذه الجماعة ، وما اضطلعت به من مسئوليات عسكرية .

وإذا كانت مملكة اراغون هي أول أرض حل بها فرسان الداوية ، ومارسوا فيها نشاطهم ، فان هذه المملكة لم تشهد ميلاد منظمات ، أو جمعيات فرسان دينية جديدة ، أما في مملكة قشتاله فقد اختلف الوضع ، اذ أن هذه المملكة كانت اكثر الممالك النصرانية عرضة لغزوات الموحدين وهجماتهم . وكانت قشتاله في كثير من الأحيان تتعرض لكثير من الاضطرابات ، والقلاقل الداخلية التي تصرف السلطة السياسية عن مواصلة الحرب ضد المسلمين ، فرأى رجال الدين خصوصا في الأديار وكان هؤلاء يعيشون حياة الحرب أكثر من حياة الرهبنة والتنسك رأى هؤلاء الرهبان والأساقفة أن يعملوا على انشاء جماعة مستقلة من الفرسان والمحاربين تكون في منأى بعيد عن السياسة وتقلباتها في الممالك النصرانية ، ومهمتها الأولى الحرب والتصدي للمسلمين[2] .

وبناء على ماتقدم فقد قامت في مملكة قشتاله جماعة فرسان دينية أطلق عليها جماعة القديس جوليان (خوليان) ، وذلك بتشجيع من ملك قشتاله القيصر ريموندیس سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م[3] وكان ملك قشتاله يتطلع إلى تقوية وتدعيم الجبهة العسكرية النصرانية أمام زحف جيوش الموحدين ، ومالبثت هذه الجماعة أن نمت وتطور حالها ، مما دفع البابا اسكندر إلى مباركتها ، وذلك سنة ٥٧١ هـ / ١١١٧٦ م[4] .

---

(١) هشام أبو رميله : المرجع السابق ، ص ٣٠٥ .
(٢) يوسف اشباخ : عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ، ص ٢٦٦ .
(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ج ١ ، ص ٥٤٨ .
(٤) هشام أبو رميله : المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

يشير المؤرخ ارسلان إلى هذه الجماعة بشيء من التفصيل ، فيذكر أنه في سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م أنشأ اثنان من الأمراء الاسبان ، ويدعى أحدهم سويرو ، والآخر غزمان نظام مارجوليان (القديس خوليان) ، . وكانت هذه التسمية التي اطلقاها على تلك الهيئة ، أو التنظيم الديني العسكري نسبة إلى الموقع الذي بنوا في حصنهم ، وكان بجوار دير القديس خوليان ، وقد سمح لها مطران طلمنكه ببناء ذلك الحصن إلى جوار الدير المذكور[١] .

وهناك رواية تاريخية أكثر تفصيلا حول نشأة هذه الجماعة الدينية ، ولو أن المؤرخ اشباخ شكك حول مدى صحتها ، تشير إلى أنه حدث أواخر عصر القيصر ريمونديس ، ان اتفق فارسان من شلمنقه ، احدهما سويرو والآخر جومث وكان الاثنان قد نذرا حياتهما للدفاع عن النصرانية ، ومحاربة المسلمين ، ووجد الفارسان ترحيبا من راهب يعيش بقرب شلمنقه (طلمنكه) ، ويدعى سانت اماندوس ، وتعاون الثلاثة في سبيل البحث عن موقع مناسب لبناء حصن تقيم فيه جماعة من الفرسان ، للاضطلاع بمسئولية قتال أعداء النصرانية ، وقد نجح الثلاثة في تحديد الموقع بالقرب من دير سانت جوليان ، فبنوا حوله حصنهم بعد موافقة الأسقف اردينو اسقف شلمنقه ، ولم تمض فترة من الزمن حتى التحق بهذه الجماعة عدد كبير من الفرسان والرهبان المتحمسين لنصرة الصليب وقتال المسلمين ، ومن بين صفوف هؤلاء ولدت جماعة محاربة ، اطلق عليها جماعة فرسان القديس خوليان ، وكان زعيم هذه الجماعة الفارس سويرو ، وقد تلقت هذه الجماعة عن طريق اسقف شلمنقه ، نظم طائفة السترشيان كنهج ديني وحربي[٢] .

ومهما يكن من شك حول صحة هذه الرواية التاريخية عن نشأة هذه الجماعة الدينية المحاربة ، فقد كان لها نشاط واسع في دعم الجبهة النصرانية قرونا عديدة ، فقد نجحت هذه الجماعة المحاربة في احراز بعض ماكانت تطمح اليه من المحافظة على حدود المملكة النصرانية في آن ، والتقدم نحو السيطرة على المناطق الاسلامية

(١) خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٧٩ .
(٢) يوسف اشباخ : المرجع السابق ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

المتاخمة لها في آن واحد ، ولما نجح النصارى في الاستيلاء على قلعة القنطرة الواقعة على نهر القنطرة[1] وذلك حوالي ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م ، شرع فرسان القديس خوليان في الانتقال اليها ، ثم اطلقوا اسمها على جماعتهم ، ومنذ ذلك الوقت عرفوا بجماعة فرسان القنطرة[2] .

شارك فرسان القنطرة في دعم أهداف السياسة العسكرية للممالك النصرانية ، والرامية الى التهام المناطق الاسلامية ، تحت الخطة الكبرى التي اسماها النصارى سياسة الاسترداد ، فانطلاقا من حرص الفونسو التاسع ملك ليون على حماية قلعة القنطرة ، وهي مقر فرسان القنطرة من هجمات المسلمين وغزواتهم المتكررة ، فقد طمح الفونسو التاسع إلى الاستيلاء على حصن قاصرش ، الواقع شمال مارده وغرب ترجاله ، وكان يهدد بوجوده وقربه حصن القنطرة ، فسار ملك ليون اليه وحاصره سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٨ م ، بيد أنه لم يفلح في الاستيلاء عليه ، وفي عام ٦١٩ هـ / ١٢٢١ م نجح فرسان القنطرة في الاستيلاء على حصن بلنسية القنطرة ، الواقع غربي قاصرش[3] .

ويبدو أنه كان لفرسان القنطرة فرع نشط في مملكة اراغون ، اذ نعثر على اشارة تاريخية حول نشاط فرسان القديس خوليان ، ويبدو أن هؤلاء احتفظوا بالاسم القديم لجماعتهم ، الذي تغير بعد ذلك إلى اسم فرسان القنطرة كما اوضحنا سابقا ، وفي الاشارة التاريخية تلك نقف على مشاركة فرسان القديس خوليان في الهجمات التي شنتها قوات اراغون على ما وراء نهر شقر ، وانهم توغلوا في تلك المناطق ، ونجحوا في الاستيلاء على عدد من القلاع والحصون الاسلامية[4] .

ولم يقتصر نشاط فرسان القنطرة على غزوات محدودة ، أو احتلال لبعض القلاع أو الحصون على أطراف الحدود بين المسلمين والنصارى ، بل تعدى ذلك الى المساهمة في خطوات الهيمنة النصرانية على قواعد الأندلس ومدنها الكبرى ، اذ

(١) انظر الحميري : الروض المعطار ص ٤٧٣ .
(٢) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى ج ١ ، ص ٥٤٨ .
(٣) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٤٠ .
(٤) اشباخ : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

شاركوا في محاصرة اشبيليه ، وقد أصيب عدد كبير من فرسان القنطرة في المواقع التي دارت بين المسلمين والنصارى أثناء الحصار ، وقد سقطت المدينة في أيدي النصارى سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م[١] .

استمر نشاط فرسان القنطرة في مهاجمة اطراف الدولة الاسلامية ، والمساهمة القوية في الاستيلاء على المدن والبلدات والحصون الاسلامية ، ونشهد في عام ٧٩٧ هـ / ١٣٩٤ م حدثا خطيرا قام به قائد فرسان القنطرة ، وهو حدث يعبر تماما عما كان يراود هؤلاء الفرسان من تطلعات ومطامع واسعة في القضاء على الاسلام بجزيرة الاندلس ، فقد قام أحد الرهبان ويدعى ساغو أوسيو ، بتشجيع دون مارتن يانس قائد جماعة فرسان القنطرة على مهاجمة المسلمين في مملكة غرناطة ، وتنبأ الراهب بان دون مارتن هو الذي سيقضي على نفوذ المسلمين في غرناطه ، ويستولى عليها كما استولى الفونسو المحارب على سرقسطه ، ويبدو أن مارتن أخذته النشوه لذلك ، فبعث الى سلطان غرناطه يوسف الثاني رسولين يدعوانه إلى الدخول في النصرانية ، وانها دين الحق ، وان ماعداها ليس حقا ، وأنه اذا لم يستجب فليستعد للنزال . ذهب الرجلان إلى غرناطه ، ونفذا ماطلبه مارتن ، فأمر السلطان بطردهما من بلاطه . ولما بلغ دون مارتن ما آل اليه حال سفيريه ، حشد قواته التي ساندتها جموع كبيرة من الصليبيين المتحمسين لقتال المسلمين ، فكان عددهم خمسة آلاف مقاتل ، وكان الراهب ساغو يحرض النصارى ويحمسهم على قتال المسلمين ، ومن ثم سار مارتن بقواته حتى دخل حدود مملكة غرناطة ، فواجهه المسلمون ، واشتبكوا معه في معركة شديدة ، أسفرت عن مقتل أعداد هائلة من النصارى ، وفي مقدمتهم دون مارتن قائد جماعة القنطرة والراهب ساغو[٢] .

وعلى الرغم من الضربة القاصمة التي وجهها المسلمون الى جماعة فرسان القنطرة . وغيرهم من فرسان النصارى . إلا أن هذا لم يحل دون مواصلة جماعة القنطرة اداء رسالتها المتمثلة في محاربة المسلمين ، وتقليص سيادتهم على بلادهم ، فقد خاض فرسان القنطرة مواقع وحروب طويلة مع مسلمي غرناطه طوال القرن

---

(١) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٨٠ .
(٢) شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس . ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .

التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ولم ينقطع نشاطهم الحربي حتى سقطت آخر قلاع المسلمين في الأندلس وهي مملكة غرناطة ، فنجد مثلا أن فرسان القنطرة شاركوا مع غيرهم من القوى النصرانية في مهاجمة مالقه سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م ، غير أن المسلمين تصدوا لهم وأفشلوا تدابيرهم(١) .

كما أن فرديناند الكاثوليكي اعتمد اعتمادا كبيراً على فرسان القنطرة في تحقيق طموحاته في القضاء على مملكة غرناطة ، فنجد أنه أوكل قيادة أحد الجيشين اللذين هاجم بهما بلش توطئه لاحتلال مالقه ، إلى قائد جماعة فرسان القنطرة ، وذلك في ربيع ٨٩٣ هـ / ٤٨٧ م . وقد أبدى المسلمون بسالة ومقاومة عنيفة للغزاة ، غير أن الصراع الدائرة آنذاك بين الأميرين المسلمين أبي عبد الله الصغير وعمه الزغل أضعف الجبهة الإسلامية ، وحط من صمودها فسقطت بلش(٢) .

ونأتي الان إلى الحديث عن جماعة فرسان دينيه تعد من أشهر الجماعات الدينية المحاربة التي ظهرت في أسبانيا ، وكان لها مساهمة قوية في الحروب التي شنتها الجبهة النصرانية على المسلمين ، وهي جماعة فرسان قلعة رباح وقد أشرنا سابقا عند الحديث عن مهاجمة الموحدين لقلعة رباح ٥٥٣ هـ / ١١٥٨ م ، وكان يحتلها آنذاك فرسان الداويه ، وكيف ان هؤلاء لم يستطيعوا الصمود طويلا أمام هجمات الموحدين ، وأبدوا للملك قشتاله عجزهم عن الاستمرار في التصدي للهجمات الاسلامية ، فانتدب الراهب ريموند رئيس دير فتيرو ومعه أحد الفرسان ويدعى ديجو بلاسكيث للدفاع عن القلعة ، وعمل الاثنان على حشد المقاتلين النصارى للدفاع عن القلعة ، فاجتمع تحت قيادتها عشرون ألف مقاتل ، اضافة إلى إمدادات كبيرة من المؤن والعتاد ، وبهذه الطريقة تمكن ريموند وصاحبه ومن معهم من النصارى المتحمسين من الدفاع عن القلعة ، والحيلولة دون سقوطها في أيدي المسلمين .

---

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق . ص ٢٠٤ .
(٢) شكيب أرسلان : المرجع السابق . ص ٢١٣ ومابعدها .

وتجدر الاشارة إلى أن كثيرا من فرسان هذه الجماعة من رهبان دير فتيرو ، وقد صادق البابا على قيامها ، وبارك جهودها وأهدافها ، وقد طبقت على هذه الجماعة النظم الحربية لطائفة السترشيان ، وحظر عليهم الزواج[1] . وكان لأفرادها زيا خاصا بهم، وهو عبارة عن رداء أبيض ، وقلنسوة مرسلة من الرأس على المنكبين ، ثم لحق هؤلاء الفرسان علامة أخرى على ثيابهم ، وهي رسم صليب أحمر على الثياب[2] .

خلف ريموند بعد وفاته ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م على رئاسة الجماعة الراهب غرسيه النافاري ، وكان متحمسا لتطوير نظام فرسان قلعة رباح فادخل ضروبا من الاصلاحات على حياة الفرسان الدينية والعسكرية ، ويبدو أن تلك الاصلاحات نالت رضا البابا اسكندر الثالث ، الذي صادق عليها سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٣ م[3] .

باشر فرسان قلعة رباح مهماتهم العسكرية في مهاجمة المناطق الاسلامية ، وترويع سكانها ، تحت ستار الدفاع عن النصارى وحماية الصليب ، حتى اذا كانت سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م أخذت مملكة قشتاله في غزو بلاد المسلمين بصورة واسعة ، وذات أهداف عميقة ، إذ شن النصارى ثلاث غزوات كانت الأولى والثانية بقيادة مطران طليطلة المتعصب وقادة فرسان قلعة رباح ، أما الغزوة الثالثة فكانت بقيادة ملك قشتاله نفسه الفونسو الثامن ، وقد توغل النصارى في غزواتهم تلك حتى بلغوا أحواز قرطبه واشبيليه ، والحقوا بالمسلمين أذى وضررا كبيرين[4] .

كان على الموحدين أن يتأهبوا لمواجهة عدوان مملكة قشتاله ، والتصدي لخطرها وعيثها في بلاد المسلمين ، فكان نتيجة هذه الجهود والتسابق بين الطرفين إلى حسم الصراع بينهما ، ان دارت موقعة كبيرة بين الموحدين بقيادة السلطان يعقوب المنصور

---

(١) يوسف أشباخ : المرجع السابق . ج ٢ ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٢) شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٧٩ .
(٣) محمد عنان : المرابطين والموحدين ج ١، ص ٥٢٠ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، قسم الموحدين ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ هشام أبو رميله : المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

والأسبان وكان عددهم يناهز مائتي ألف مقاتل ، بقيادة ملك قشتاله الفونسو الثامن ، في موضع بالقرب من حصن الأرك إلى الشمال من قرطبه ، وذلك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، وأسفرت المعركة عن نصر كبير أحرزه الموحدون ، وذلك بعد أن نجح هؤلاء في مهاجمة قلب الجيش الاسباني ، وكان يتولى قيادته الفونسو الثامن ملك قشتاله ، ويحيط به عشرة آلاف فارس ، وفي مقدمتهم فرسان قلعة رباح ، وقد سقط معظم هؤلاء تحت سنابك الخيل[١] .

على أثر هذا النصر ، هاجم الموحدون قلعة رباح ، ونجحوا في الاستيلاء على القلعة ، وقد قتل أثناء الهجوم على القلعة أستاذ الجماعة نونيو دي فونيش ، وسار بقية فرسان قلعة رباح ممن نجا من القتل إلى قلعة شلبطرة القريبة وكانت بأيدي النصارى[٢] .

يبدو أن معركة الأرك وما أسفرت عنه من هزيمة قاسية للنصارى ، لم تمنعهم بعد ذلك بسنوات من مواصلة غزوهم وعيثهم في المناطق الاسلامية ، ففي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م قاد الفونسو الثامن ملك قشتاله جيشه ، وبرفقته فرسان قلعة رباح لغزو أطراف بلاد المسلمين ، وكان فرسان قلعة رباح أنفسهم قد اتخذوا من قلعة شلبطره[٣] قاعدة ينطلقون منها لمهاجمة بلاد المسلمين ، وقد وصلت غزواتهم احواز مدينة جيان ، واندوجر ، وبياسه ، مما دفع الموحدين إلى اتخاذ التدابير اللازمة للتصدي لخطر هؤلاء الفرسان ، وكان على الموحدين ان يقضوا على مصدر خطر أولئك الفرسان ، فحاصروا قلعة شلبطرة حصارا شديدا سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م .
يشير الحميري إلى عملية الحصار ، ومالقيه فرسان قلعة رباح بقوله : (فنصب « أي الخلفية الناصر » عليها المجانيق ، ورميت بالحجارة الصم الكبار ، وطال حصارها

---

(١) انظر الضبي : بغية الملتمس ص ٤٥ ـ المراكشي : المعجب . ص ٤٠٥ ـ اشباخ: المرجع السابق ج ٢، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٧ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٤٠٦ ـ هشام أبو رميله ، المرجع السابق ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .
(٣) انظر عن أهمية هذه القلعة ابن عذاري : البيان المغرب . قسم الموحدين ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

إلى أن ضاق أهلها ، وأعياهم الأمر ، فطلبوا أجلا يستجلبون فيه ملكهم صاحب طليطله وقشتاله الأذفونش بن شانجه ، فاعطوا ماطلبوا ، فخرج قوم من ثقاتهم إلى طليطله ، والتقوا مع ملكهم اذفونش بها أو بغيرها من بلاده ، وأعلموه بما انتهوا اليه من الشدة ، ومابلغوا من الجهد والمشقة ، وحملوا اليه بعض أحجار المجانيق التي يُرمون بها ، فعذرهم ، ولم تكن عنده قدرة لدفع مانزل بهم ، ولا استطاع الدفاع عنهم فأذن لهم في الخروج منها)[١] .

في العام التالي حشد المسلمون قواتهم للقاء الاسبان وحلفائهم من الصليبيين الأوروبيين في موضع يدعى العقاب، شمال شرق قرطبه، وكان فرسان الجماعات الدينية في مقدمة صفوف الجيش الصليبي الذي كان يتألف من ثلاثة جيوش . وقد تحدثنا عنها أثناء الاشارة إلى مساهمة فرسان الداوية في هذه الموقعة ، وكان فرسان قلعة رباح قد انضووا تحت لواء الجيش الثالث ، المكون من قوات مملكة قشتاله ، ومملكة ليون ، ومملكة البرتغال[٢] .

وكان الصليبيون قبل الموقعة قد نجحوا في الاستيلاء على قلعة رباح سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م ، وذلك على الرغم مما بذله قائد القلعة من جهد واسع في سبيل الدفاع عنها ، إلا أنه أدرك عقم المحاولة ، فأعلن استعداده لتسليمها لملك قشتاله على أن يخرج بقواته في امان ، فوافق الملك وتم للنصارى الاستيلاء على القلعة ، وفور ذلك أمر الملك الفونسو الثامن بتسليمها إلى فرسان قلعة رباح باعتبارها قاعدتهم الأولى[٣] .

وتجدر الاشارة إلى النصر الكبير الذي أحرزه الأسبان وحلفاؤهم من الصليبيين على المسلمين في موقعة العقاب ، وأن هذا التفوق النصراني كان يمثل أكبر خسارة أصابت الجبهة الاسلامية ، نظرا لما ترتب عليها من نتاؤج حاسمة على صعيد المواجهة بين الجبهتين الاسلامية والنصرانية ، إذ كان ذلك بمثابة طور الانهيار الذي

---

(١) الروض المعطار ، ص ٣٤٤ .
(٢) اشباخ : المرجع السابق . ج ٢، ص ٣٥٩ـ ٣٦٠ .
(٣) اشباخ : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٦١ـ ٣٦٢ .

أدى إلى اضمحلال السيادة الاسلامية على أرض الأندلس ، فلم تمر بضع عشرات من السنين على هذه الموقعة ، حتى سقطت كبرى قواعد الاسلام في الأندلس ، وتقلص نفوذ المسلمين حتى انحصر في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة الأندلسية ، فيما أصبح يعرف بمملكة غرناطة ، التي قام على تأسيسها محمد بن يوسف النصري ، نسبة إلى نصر بن قيس بن سعد بن عباده صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك سنة ٦٣٥ هـ /١٢٣٧ هـ .

شارك فرسان قلعة رباح في الحملات العسكرية التي استهدفت الاستيلاء على مدن وقواعد الأندلس خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وكانت أولى وقواعد الأندلس خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وكانت قشتاله سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٦ [١] كما كان لفرسان قلعة رباح نصيب في حصار مدينة بلنسيه تحت راية خايمي بن بدرو ملك اراغون ، وذلك سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م ، وقد سقطت المدينة بعد حصار طويل ومقاومة شديدة ، وذلك في صفر ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م[٢].

كما أن فرسان قلعة رباح أسهموا بقدر كبير في محاصرة مدينة جيان ، وكان ذلك تحت راية ملك قشتاله فرناندو الثالث سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م ، وبعد سقوط المدينة في أيدي النصارى نال فرسان قلعة رباح نصيبهم من الغنائم ، وحصلوا على أقسام كبيرة من المدينة نظير جهودهم[٣] .

وفي مستهل سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م . قصد فرناندو الثالث ملك قشتاله ، مدينة اشبيليه في حشود ضخمة ، وفي مقدمتها فرسان قلعة رباح ، وغيرهم من فرسان الجماعات الدينية المحاربة ، حيث عاثت تلك القوات في أحواز وضواحي اشبيليه ، بقصد تخريب حقولها ومزارعها ، وتحطيم مقومات سكانها الاقتصادية ،

---

(١) ابن عذارى : البيان . قسم الموحدين ، ص ٣٣١ ـ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ .
(٢) ابن عذارى : البيان قسم الموحدين . ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٤٤ ومابعدها .
(٣) محمد عنان . عصر المرابطين والموحدين ج ٢ ، ص ٤٦٩ .

فقد أوكل فرناندو إلى بعض قواته ، ومنها فرسان قلعة رباح بتخريب فحص شريش ، في الوقت الذي كانت فيه قوات أخرى تدمر فحص الشرف ، لانهاك المدينة ، وتجويع أهلها ، وفي العام التالي سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م قصد فرناندو المدينة لحصارها واقتحامها فجوبه بمقاومة عنيفة من أهالي المدينة ، وقد مني النصارى أثناء الحصار بخسائر فادحة في الأرواح ، وتلقى فرسان قلعة رباح ضربات مؤلمة ، فسقط عدد كبير منهم أثناء الحصار ، غير أن طول الحصار الذي امتد ما يقارب العام ونصف العام أثر تأثيرا كبيرا على أهالي المدينة ، وفت في عضدهم ، فصالحوا النصارى على التسليم والخروج من المدينة بالأمان ، وذلك في شعبان سنة ٦٤٦ هـ / نوفمبر ١٢٤٨ م[١] .

على الرغم من هيمنة النصارى على معظم أنحاء شبه الجزيرة الأندلسية ، وتقلص دولة الاسلام في تلك البقعة الجنوبية الشرقية من الأندلس، وهي مملكة غرناطة ، الا أن النصارى لم يدخروا وسيلة أو جهدا في سبيل اتمام سيطرتهم على كامل الجزيرة الأندلسية ، وكان أكثر المتحمسين لهذا الهدف رجال الدين من الأساقفة والقساوسة وجماعات الفرسان الدينية ، وفي مقدمتهم فرسان قلعة رباح ففي ربيع الأول ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م نشبت معركة بين جيوش مملكة قشتاله والجيش الاسلامي ، على عهد السلطان محمد بن اسماعيل ، وقد أسفرت المعركة عن نصر كبير للمسلمين ، وهزيمة قاسيه للنصارى ، الذين وقع كثير منهم بين قتيل وأسير ، وكان من بين الأسرى وعددهم ألف ومائتان ، قائد فرسان قلعة رباح ، وهو ابن أخي ملك قشتاله[٢] .

---

(١) محمد عنان : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٤٧٤ عبد الرحمن الحجي ، المرجع السابق ، ص ٤٨٢ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، القسم الأندلسي . ص ٣٠٩ ـ عبده عواجي : الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس . (رسالة ماجستية لم تنشر) ص ١٦٩ .

ولم يقتصر دور قلعة رباح على مواجهة المسلمين ، وغزو أراضيهم وانما عملوا ايضا وبنشاط كبير على اثارة القلاقل ، وتوسيع شقة الخلاف بين المتنافسين على عرش مملكة غرناطه ، فعندما ثار يوسف بن المول ـ وهو أحد الشخصيات السياسية التي تمت بصلة القرابة إلى الأسرة النصرية ـ على السلطان النصري محمد التاسع ، (الأيسر) لقي تشجيعا من قبل خوان الثاني ملك قشتاله ، وكذلك من رئيس جماعة فرسان قلعة رباح دون لويس دي جوزمان وذلك مقابل أن يخضع ابن المول للملك قشتالة، ويدفع له الجزية، فقدم له هذا المساعدات العسكرية، وهاجم قائد فرسان قلعة رباح بفرسانه أطراف مملكة غرناطه ، وذلك في خريف ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م ، وقد أدت هذه الهجمات إلى إضعاف جانب السلطان محمد التاسع ، ونجح ابن المول في الوصول الى سدة الحكم ، غير ان ابن المول لم ينعم بالسلطة ، ولم تستقر له الأحوال ، اذ ثار عليه المسلمون ، ورأوا فيه اداة من ادوات النصارى ، فسعى ابن المول يطلب المساعدة من ملك قشتاله ، بيد ان المسلمين بقيادة الأمير النصري محمد الأعرج الحق الهزيمة بالجيش النصراني القادم لمساعدة ابن المول ، وكان من نتيجة ذلك أن هب قائد فرسان قلعة رباح لنجدة ابن المول ، غير انه ما لبث أن تقهقر بعد مقاومة عنيفة من قبل المسلمين ، فبقي ابن المول ، محاصرا في غرناطة ، ومالبث قليلا حتى أدركته الوفاة ، وذلك بعد ستة أشهر من حكمه لمملكة غرناطة ، وعاد الأمر للسلطان محمد التاسع[1] .

استمر فرسان قلعة رباح في مهاجمة أطراف مملكة غرناطه ، ففي سنة ٨٦٨ هـ / ١٤٦٣ م تمكن اولئك الفرسان من الاستيلاء على احدى القلاع الحصينة ، التي كانت تمثل خط الدفاع الأول عن مدينة ارشدونه ، ويبدو أن السلطان سعد بن محمد احس بتعاظم خطر النصارى ، وضراوة حملاتهم آنذاك ، فبعث برسالة إلى السلطان المملوكي خشقدم يستمده العون والنجدة[2] .

---

(١) يوسف شكري : غرناطه في ظل بني الأحمر . ص ٥٤ عبده عواجي : المرجع السابق ، ص ٢٣٩ . ويشير عبده عواجي في نفس الصفحة حاشية رقم « ١ » إلى نص خطاب يوسف بن المول إلى قائد قلعة رباح باللغة القشتالية في ٨ فبراير ١٤٣٢ م .

(٢) عبده عواجي : المرجع السابق . ص ١٨٨ .

نشط فرسان قلعة رباح في أواخر الحكم الاسلامي في مملكة غرناطة ، فشاركوا في تضييق الخناق على غرناطة ، وسلبها كافة قواعدها وحصونها وقلاعها الأمامية التي تحميها ، فقد نجح النصارى في الاستيلاء على بلدة الحامة سنة ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، وحاول السلطان أبو الحسن استرجاعها ، وبذل في سبيل ذلك جهودا كبيرة ، الا أنه لم ينجح في استعادتها ، بسبب النجدات الهائلة التي تلقتها الحامية النصرانية ، وكان في مقدمة من أنجدها فرسان قلعة رباح الذين هبوا للدفاع عن تلك البلدة الاستراتيجية ومنع رجوعها إلى أيد المسلمين[١] .

واذا كان النصارى قد حققوا مكسبا جيدا بالاحتفاظ ببلدة الحامة ، فقد حاولوا في نفس العام الاستيلاء على مدينة لوشه ، وذلك في جمادى الأولى ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، غير انهم تلقوا هزيمة مؤلمة على أيدي المسلمين ، وسقط كثير من قادة وفرسان النصارى صرعى ، وكان من بينهم لذريق جيرون صاحب قلعة رباح الذي عظم المصاب به لدى الأسبان[٢] .

وكان فرسان قلعة رباح من بين القوات النصرانية التي حاصرت مالقه ، وقاتلت أهلها (حتى اضطرتهم إلى التسليم بعد حرب طويلة وحصار شديد اضطر فيه الأهالي إلى أكل الحمير والخيل ، وقد سقط عدد كبير من فرسان قلعة رباح في المواقع التي دارت بينهم وبين أهالي المدينة ، وكان دخول النصارى اليها في سنة ٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م[٣] .

ويتضح لنا مدى المكانة التي احتلها فرسان قلعة رباح ، ان قائدهم كان من أبرز الشخصيات اللامعة في البلاط القشتالي ، حتى انه كان احد المتنافسين على الزواج من الأميرة ايسابيلا (ملكة قشتاله فيما بعد) وقد وافق أخوها الملك هنري على تزويجه منها ، غير أن هنري توفي قبل اتمام الزواج ، فكانت ايسابيلا من نصيب فرناندو ملك اراغون[٤] .

(١) شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٨٠ .
(٢) شكيب أرسلان : المرجع نفسه ص ١٩١ .
(٣) شكيب أرسلان : المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ .
(٤) محمد عنان : نهاية الأندلس ، ص ١٨٠ .

وعلى نفس نظم فرسان قلعة رباح ، أنشأ الفونسو هنريكيز ملك البرتغال جماعة دينية محاربة ، سميت الجماعة المحاربة الجديدة Nova Miltia وكان شعارها الحرب من أجل الصليب ، ومقاتلة المسلمين ، وكان على فرسان هذه الجماعة ان يخضعوا لكبير فرسان قلعة رباح ، وهو ما يفيد ان هذه الجماعة الدينية المحاربة ماهي الا فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ، ومن المبادىء التي التزمت هذه الجماعة بالسير عليها عدم اباحة الزواج لافرادها ، وقد عين الملك الفونسو اخاه بيدرو أول أستاذ للجماعة ، ولما نجح فرسان هذه الجماعة في الاستيلاء على مدينة يابره سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦م ، بقيادة الفارس المغامر جيرالد الباسل (سمبافور)[١] ، سُموا بفرسان يابره ، ثم تسموا فيما بعد بفرسان آفيس على اسم القلعة التي منحهم اياها الملك الفونسو الثاني ، ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م . وكان الزي الذي تميز به أفراد هذه الجماعة . عبارة عن عباءة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه تغير بعد أن تبين لهم صعوبة التحرك في مثل هذا اللباس ، كما سمح لافراد هذه الجماعة بعد ذلك بالزواج على أن لا يتكرر ذلك[٢] .

بعد ثلاث سنوات من قيام جماعة فرسان قلعة رباح ، ظهرت في جليقيه في الشمالي الغربي من الجزيرة الايبيريه ، جماعة فرسان دينية ، هي جماعة فرسان القديس ياقب Santiago . وتعتبر من أشهر الجماعات الدينية المحاربة التي ظهرت في أسبانيا النصرانية ، ان لم تكن أشهرها على وجه الاطلاق ، كان مؤسسوها الأوائل يشتغلون بقطع الطرق ، وارتكاب جرائم السطو والنهب والسرقة ، فوعظهم الرهبان والقساوسه ، وبينوا لهم عظم ما يقترفونه من آثام ، ودعوهم إلى التوبة ، وتجنيد انفسهم لرضا الرب ، فاقلع اولئك الفرسان عن سيرتهم الأولى ، وأبدوا استعدادهم للعمل في خدمة الصليب ، والدفاع عنه ، وان يقوموا بتوفير الحماية والرعاية للحجاج

---

(١) يعرف في المصادر الاسلامية بجرانده كما هو مذكور في كتاب ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة انظر عن نشاط جيرالد (جرانده) العسكري في الكتاب المذكور ص ٢٧٤ ـ ٢٨٨ ، ٣٠٥ ـ ٣١١ .

(٢) اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠ ج ١ ، ص٥٢٠ محمد عنان: عصر المرابطين والموحدين ج ١ ص ٥٢٨ .

المسيحيين الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب ، وكان أول رئيس لهذه الجماعة الفارس بيدرو فرنانديث وقد عين في منصبه هذا بموافقة فرديناند ملك ليون ، وقد الزم هذه الجماعة بالسير على منهج القديس اوغسطين ، وأسبغ عليها الطابع الحربي ، وخلافا لفرسان قلعة رباح فقد أبيح لأعضاء جماعة فرسان شنت ياقب أن يتزوجوا ، وتلقت الجماعة مساعدات وهبات من الملوك والنبلاء ، فقويت واتسع نشاطها[1] .

وتجدر الاشارة إلى أن هذه الجماعة الدينية المحاربة ، لقيت كمثيلاتها من جماعات الفرسان الدينية الأخرى ، كل دعم وتشجيع من قبل البابويه ، وكان للبابا اسكندر الثالث ، والبابا انوسنت الثالث ، نصيب كبير في ذلك الدعم ، وأبديا سرورهما ومباركتهما لجماعة فرسان شنت ياقب ومايرمون اليه من أهداف لنصرة الصليب ومقاتلة المسلمين[2] .

شارك فرسان شنت ياقب منذ قيام جماعتهم في الحروب التي شنتها الممالك النصرانية على بلاد المسلمين ، وكان فرسان شنت ياقب في مقدمة الجيوش النصرانية ابان المعارك الكبرى ، التي دارت بين المسلمين والأسبان النصارى كموقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وماتلاها من احداث جسام ، تمثلت في سقوط كبرى مدن الأندلس وقواعدها ، ففي موقعة العقاب كان فرسان شنت ياقب بقيادة رئيسهم بيدور آرياس ضمن تشكيل الجيش الثالث[3] ، الذي يقوده الفونسو الثامن ملك قشتاله ، والذي يتألف من قوات قشتاله ، وليون ، والبرتغال ، اضافة الى بعض فرسان الجماعات الدينية المحاربة الأخرى[4] .

---

(١) اشباخ ؛ المرجع السابق ج ٢، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ - محمد عنان و المرجع السابق ج ١ ص ٥٢٠ وفي نفس الصفحة حاشية رقم ١ القديس اغسطين عاش في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي وقد أسست باسمه جماعة دينية في القرن الحادي عشر الميلادي وشعارها العفة والطاعة .

(٢) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١، ص ٥٤٨ - ٥٤٩ .

(٣) سبق أن تحدثنا عن الجيوش النصرانية الثلاثة التي شكلت القوى النصرانية في موقعة العقاب عند الحديث عن فرسان الداوية ، واشتراكهم في الموقعة المذكورة .

(٤) يوسف أشباخ : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٦١ .

سهل على الممالك النصرانية بعد موقعة العقاب أن تمضي في خططها الرامية إلى التهام المناطق الاسلامية ، ففي سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م استعان الفونسو الثاني ملك البرتغال بالصليبيين الأوروبيين الذين رسوا في ميناء لشبونة بسبب العواصف وتحطم بعض سفنهم ، وكانوا ينوون الذهاب إلى المشرق ضمن الحملات الصليبية الأوروبية ، فاستغل الفونسو وجودهم ، واطمعهم في الغنيمة اذا هم ساعدوه في الاستيلاء على بلدة قصر ابي دانس ، فاستجاب معظم الصليبيين وساروا مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان شنت ياقب وغيرهم من القوى النصرانية ، فنجح النصارى في الاستيلاء على المدينة وسُلمت إلى فرسان شنت ياقب لما أبدوه من تضحيات[1] .

قام ملك ليون الفونسو التاسع بقيادة جيشه للاستيلاء على حصن قاصرش ، وذلك في سنة ٦٢٠ هـ / ١١٢٢ م ، غير أنه لم ينجح وفي عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م عاود هجومه بمساعدة فرسان شنت ياقب ، حيث نجح في الاستيلاء على حصن قاصرش[2] .

لم تكن مملكة البرتغال لتغفل عن هذه الفرصة السانحة ، فأخذ البرتغاليون يوسعون سيطرتهم ، ونفوذهم على المناطق الجنوبية من غرب الأندلس ، فكان لسانشو الثاني نشاط واسع في الاستيلاء على عدد من المدن ، والحصون الاسلامية سنة ٦٢٤ هـ / ٢٢٦ م ، ثم اتبعها بالاستيلاء على بلدة الفاس ، ثم ميرتله وسلمها لفرسان شنت ياقب للمحافظة عليها ، وتلى ذلك وقوع عدد من المدن والبلدات الاسلامية في أيدي البرتغاليين كشلب ، وطلبيره ، وغيرها[3] .

أبدى فرسان شنت ياقب قدرة كبيرة في الاستيلاء على بعض الحصون والقواعد بقواهم الذاتية. فقد نجح هؤلاء الفرسان في الاستيلاء على حصن منطيل، وكانت بعض الجماعات الدينية المحاربة قد نجحت في عام ٦٣١ هـ / ١٢٣٤ م في الاستيلاء

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ٢، ص ٤٥١ .
(٢) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤١ .
(٣) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٦١١ .

على عدد من القلاع والحصون كحصن مجسيلة (أم غزال) ومدلين والهانجه وترجاله[٤] . وتقع هذه الحصون في الجنوب الغربي من الأندلس وكان احتلالها خطوة نحو تطويق مدينة قرطبه والانقضاض عليها .

ومن المرجح أن فرسان شنت ياقب ساهموا أيضا في الاستيلاء على مدينة قرطبه ، عاصمة الدولة الأموية ما يقارب ثلاثة قرون ، وكان فرناندو الثالث ملك قشتاله قد حطم قواعدها الأمامية ، والحصون المحيطة بها ، ثم حشد قواته حيث طوقها ، وبعد حصار طويل ومرير ، أدرك أهالي المدينة أن لا جدوى من الدفاع ، فاستسلمت المدينة في شوال ٦٣٣ هـ / ١٢٣١ م .

تابع فرناندو الثالث سياسته الرامية إلى الاستيلاء على المدن والمناطق الاسلامية بعد نجاحه في احتلال قرطبه ، فعاثت قواته في منطقة جيان . واستولت على عدد من المناطق والحصون ومنها بلدة مرتش ، وكان محمد بن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، قد برز على ساحة الأحداث ، كقائد بارع يناضل عن المناطق الاسلامية المتبقية بأيدي المسلمين ، فخرج على رأس جيشه لاستعادة بلدة مرتش ، فحاصرها سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م ، غير أن جيشا كبيرا من القشتالين تسانده طائفة كبيرة من فرسان شنت ياقب سار إلى البلدة لانجادها، وكان على رأس الجيش القشتالي الدون ردريجو الفونسو ، وهو أخ غير شرعي لفرناند الثالث ، التقى الطرفان بالقرب من البلدة المذكورة ، ونشبت بينهما معركة شديدة انجلت عن نصر مؤزر للمسلمين ، وقتل عدد كبير من النصارى ، ومن بينهم جمع كبير من فرسان شنت ياقب ، ورغم هذه الهزيمة التي حلت بالقشتاليين الا انهم لم يقطعوا الأمل في السيطرة على المناطق الواقعة إلى الشمال من غرناطة ، وأهمها مدينة جيان ، فسعى فرناندو إلى حصارها أواخر سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٥ م ، وقد أبدى أهلها مقاومة وبسالة ، ولم يكن بيد زعيم المسلمين آنذاك وهو محمد بن الأحمر سوى مفاوضة فرناندو ، بعد أن يئس من صمود المدينة ، وأبرم معه اتفاقية مكلفة، اذ كان عليه أن يعترف بسيادة ملك قشتالة على غرناطة، وأن يحكم ابن الأحمر هذه المدينة، ومايلحق بها من المدن كتابع لملك قشتاله، وأن يؤدي له كل عام مبلغا كبيرا من المال، وفوق ذلك يسلمه عددا

(١) يوسف اشباخ : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

من الحصون والقلاع ، وفي مقدمتها مدينة جيان ، التي دخلها النصارى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٦ م وتقاسم القادة والفرسان دور المدينة ، وكان أكثرهم من فرسان شنت ياقب ، وفرسان قلعة رباح[١] .

وكان لفرسان شنت ياقب نصيب وافر في حصار مدينة أشبيليه ، الذي استمر أكثر من ثمانية عشر شهرا ، وكان فرناندو قد أرهق المدينة ، وحطم قواها الاقتصادية ، بهجماته المخربة والمدمرة على حقولها ومزارعها ، كما أنه قد مهد للاستيلاء عليها باحتلال ، وتدمير حصونها وقلاعها الامامية . وكل ما من شأنه أن يعينها على الصمود والمقاومة ، ففي أوائل سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م ، استولى على أهم قلاعها ، وهي قلعة جابر ، ثم اصدر أمره الى بلاي كوريا قائد فرسان شنت ياقب ، بتخريب فحص الشرف الممتد أمام اشبيليه ، وكانت به مزارع وحقول أهالي المدينة ، كما أوعز إلى قوات أخرى بتدمير فحص شريش[٢] .

ولما أيقن فرناندو ضعف المدينة اقتصاديا ودفاعيا ، طوقها بقواته . ورغم ذلك فقد صمد المسلمون كما ذكرنا مايقارب العام ونصف العام ، وأخيرا استسلمت المدينة سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م .

واذا كان فرناندو الثالث قد نجح في الاستيلاء على عدد من قواعد الاسلام في وسط الأندلس ، فان خايمي بن بدرو ملك اراغون ، ـ وكان معاصرا لفرناندو الثالث ـ نجح هو بدوره في الاستيلاء على قواعد الأندلس الشرقية ، وفي مقدمتها مدينة بلنسيه ، وكان هذا الملك متحمسا لقتال المسلمين ، ويضطرم بروح صليبيه عميقه ، فجهز حملة عسكرية بحرية للمشاركة في الحملات الصليبية على المشرق الاسلامي سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م ، غير أن العواصف دمرت كثيرا من سفنه ، فعدل عن مشروعه ، وواصلت بعض سفن الحملة مسيرتها نحو المشرق وعليها قوة من الفرسان ، أكثرهم من فرسان شنت ياقب[٣] .

---

(١) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧ ومابعدها ، اشباخ : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٤٣٦ و ص ٤٣٩ .

(٢) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، قسم الموحدين . ص ٣٨٠ ـ اشباخ : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٤١ ـ محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٤٧ ـ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٨٢ .

(٣) محمد عنان : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٦٠٦ ـ ٦٠٧ .

كان من ضمن المهمات التي اضطلع بها فرسان شنت ياقب ، ابان القرنين الثامن والتاسع الهجريين الرابع والخامس عشر الميلاديين ، القيام بالدفاع عن حدود مملكة قشتاله ، وفي نفس الوقت شن الهجمات على طول الحدود الاسلامية ، فعلى عهد الملك هنري الثالث ، أمر قادة فرسان شنت ياقب ، وغيرها من جماعات الفرسان الدينية الأخرى بحشد طاقاتها الحربية على طول الحدود ، لمواجهة المسلمين غير أن الأمر انتهى بين الطرفين إلى ابرام اتفاق بين رسل سلطان غرناطه ، وقائد فرسان شنت ياقب ، وذلك في سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م . بيد أن الهدنة لم تطل بينهما ، اذ نشبت الحرب على طول حدود مملكة غرناطه . واستمرت ثلاث سنوات بني عامي ٨١٠ هـ - ٨١٣ هـ / ١٤٠٧ - ١٤١٠ م ، وقد نجح فرسان شنت ياقب في الاستيلاء على بلدة برونا في يونيو ١٤١٠ م ثم نجح النصارى بعد ذلك في الاستيلاء على قلعة الصخرة في صيف العام المذكور ، وتمثل هذه القلعة ، وماجاورها من حصون ، خط الدفاع الرئيسي عن مملكة غرناطه(١) .

ولما تمت الوحدة بين مملكتي قشتاله واراغون بعد زواج فرناندو ملك اراغون من ابنة عمه ايسابيلا ملكة قشتاله ، عزم الاثنان على سحق آخر معاقل المسلمين ، والتضييق عليهم فعهدا بالدفاع عن حدود منطقة استجه إلى قائد فرسان شنت ياقب سان ديجو الونسو كردناس ، وعن جيان الى قائد فرسان قلعة رباح ، كما عهدا إلى دوق مدينة سدونيا ومركيز قادش والكونت دي قبره ودون الونسو دي اجلار وغيرهم من قادة الحدود مع مملكة غرناطة ، أن يأخذوا الاحتياطات الممكنة للدفاع عن الحدود النصرانية ، ورد هجمات المسلمين عنها(٢) .

أبدى سلطان غرناطة أبو الحسن مقاومة شديدة لاحباط مؤامرات فرناندو ، فتصدى لهجمات القوات النصرانية على لوشه ، في جمادي الأولى ٨٨٧ هـ / ١٤٨٢ م ، ثم قام بغزواته في طريف ، وحقق نجاحا في غزواته هناك ،

---

(١) عبده عواجي ؛ الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس (رسالة ماجستير لم تنشر) ص ٢١٠.

(٢) عبده عواجي : المرجع نفسه ص ٢٨٨ وانظر نفس الصفحة حاشية رقم (٢) .

مما دفع النصارى الى تجهيز حملة عسكرية للرد على نشاط السلطان النصري ، فاجتمع عدد من قادة ونبلاء النصارى في مدينة انتقيره ، في صفر ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م وذلك تحت زعامة مركيز قادش الدون بدرو هنريكس، وقائد أشبيليه الكونت دي سيفونتاز ، والدون الونسو دي كردناس قائد فرسان شنت ياقب ، والدون الونسو دي اجيلار ، واتفقوا على حشد قوات ضخمة لمهاجمة المسلمين في مالقه ، فتم لهم حشد ما يقارب من ثمانية الاف مقاتل من الفرسان والمشاة ، وقصدوا بها اراضي مالقه ، وحاولوا اخفاء تحركاتهم عن أعين المسلمين ، فلما بلغوا المرتفعات المطلة على مرج مالقه ، ابتهجوا لكثرة قطعانها ومواشيها ، وخصوبة اراضيها ، ويبدو أن الأهالي فطنوا لتحركات الغزاة ، فصعدوا الى ذرى الجبال المحيطة بقطعانهم ، واقبل النصارى على تدمير واحراق المنازل ، والسلب والنهب ، ورأى المسلمون ان يكمنوا للنصارى في المضايق والأوعار ، فلما سلك النصارى تلك المسالك الضيقة ، في موضع يسمى شرقيه مالقه ، هاجمهم المسلمون بالحجارة والنبل ، فاضطرب نظام الغزاة ، ودخلهم الروع وسقط كثير منهم بين قتيل وجريح ، فامر قائد فرسان شنت ياقب الونسو دي كردناس وكان يقود ساقة الجيش أن ينضوي الجميع في موضع واحد ، استعدادا لمواجهة الهجمات ، وقادهم المصير إلى المرور بشعب ضيق في الجبال ، تقطعه الهوات والأخاديد مما كان له أكبر الأثر في تشتيت قواهم ، وتبعثرهم في تلك الأوعار ، فنزل عليهم المسلمون من رؤوس الجبال ، وامطروهم بالحجارة والنبال وحاول قائد فرسان شنت ياقب الونسو دي كردناس ان يحتمي بالجبال فصعد هو وجنده الا أن المسلمين لم يمهلوهم فاستمروا في مهاجمتهم ، فلما بلغ الدون الونسو كردناس قمة الجبل ، التفت الى بقية قواته فهاله مالحق بها من خسائر فادحة ، وحاول مواصلة القتال ، الا أن أصحابه نصحوه بالفرار ، بعد ان اتضحت النتيجة، ولاح تفوق المسلمين فآثر قائد فرسان شنت ياقب الفرار بجلده ، وصحبه بقية فرسانه ، في حين ضل بعضهم الطريق فقتلهم المسلمون وأسروا البعض الآخر ، وخلال ذلك وصل السلطان محمد بن سعد، المعروف بالزغل على رأس جيشه ، ومن معه من مجاهدي شرقية مالقه ، فتصدى لقوة أخرى من النصارى ، كان يقودها مركيز قادش والكونت دي سيفونتاز ، والونسو دي اجيلار ونجح الزغل في الحاق هزيمة مروعة بتلك القوة ، وقتل عدد من قادة النصارى ، ومنهم ثلاثة اخوة

لمركيز قادش ، كما قتل ابن أخيه واضطر مركيز قادش ومن بقي من أصحابه الى الفرار ، ووقع في الأسر عدد كبير من النصارى ، وعلى رأسهم الكونت دي سيفونتاز صاحب اشبيليه[1] .

يذكر المقري ان عدد القتلى كان ثلاثة آلاف ، وعدد الأسرى الفين ، ومن جملتهم خال الملك ، وحاكم أشبيلية ، وصاحب انتقيره ، وصاحب شريش وغيرهم وهم نحو ثلاثين من أكابر القادة ، والفرسان ، وغنم المسلمون من الغزاة غنائم هائلة[2] .

واصل فرسان ياقب نشاطهم العسكري ولم يمنعهم ماحل بهم من ويلات وخسائر ، ومالحق برجالهم من قتل وأسر ، فعادوا لمهاجمة مالقه بعد ذلك غير أنهم لم يفلحوا في تحقيق أي نصر ، ومع ذلك فقد كان لهم نصيب كبير في الاستيلاء على مدن وقرى وحصون مملكة غرناطه ، اذ أن كل موقعة حاسمة شهدت نشاطهم وتواجدهم في مقدمة الصفوف فكان لهم مساهمة واضحة في حصار مدينة مالقه ، وهي المدينة التي رفضت باباء وشمم كل عروض الاستسلام ، فأبدى أهلها مواقف لا نظير لها في البسالة والتضحية ، وحاصرها النصارى من البر والبحر ، حتى اضطروا أهلها إلى أكل الحمير والخيل ، ومع ذلك فقد أوقع المسلمون بالنصارى خسائر فادحة ، وسقط كثير من فرسان شنت ياقب قتلى ، ولاذ كثير منهم بالفرار ، غير أن طول الحصار ، وانقطاع المدد عن أهل المدينة ، اضطرهم إلى التسليم سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦[3] .
٨٩٢ هـ / ١٤٨٦ م[3] .

وشارك فرسان شنت ياقب في الهجوم على مدينة بسطه ، وقد أبدى اهلها مقاومة عنيفة، والحقوا بالأسبان خسائر شديدة حتى أوشك فرناندو على سحب جيشه ، وترك حصارها ، غير انه مالبث أن أعاد تنظيم جيشه بعد آن وصلته النجدات والمؤن ، في الوقت الذي ضاق حال الأهالي ، وانقطعت عنهم المؤن

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق : ص١٩٤ ـ ١٩٥ ستانلي لينبول : قصة العرب في أسبانيا ص ١٩٧ ومابعدها .
(٢) نفح الطيب ج ٤ . ص ٥١٤ .
(٣) المقري : نفح الطيب ج ٤ ص ٥٢٠ شكيب أرسلان : المرجع السابق، ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

والامدادات فاضطرت المدينة إلى التسليم ، فدخلها النصارى في محرم ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م[1] .

ولما تم لفرناندو الاستيلاء على كافة مدن وقلاع وحصون مملكة غرناطه ، قصد بجيشه حاضرتها ، وهي مدينة غرناطه ، ومن الطبيعي أن يكون بين جيشه البالغ أربعين الف راجل وعشرة آلاف فارس ، وفي رواية أخرى أن عدده بلغ ثمانين الف مقاتل كبار قادة الجمعيات الدينية المحاربة ، وفي مقدمتهم قائد فرسان شنت ياقب ، ولا حاجة بنا إلى الافاضة فيما وقع بين القوات النصرانية ، وأهالي المدينة ، وحاكمها أبي عبد الله الصغير . غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أن من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط غرناطه ، ومن قبلها حصونها وقواعدها المحيطة بها ، ذلك النزاع الدامي ، الذي كان ينشب بين امراء الأسرة النصرية ، في وقت كان المسلمون فيه أحوج ما يكون الى الاتحاد والتكاتف ، أمام الخطر المحيق بهم ، ومن الأمثلة على ذلك ، النزاع الذي نشب بين أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة، وعمه محمد بن سعد (الزغل) ، وهو النزاع الذي فتت ما تبقى بأيدي المسلمين من قوة وعزم ، وهيأ الأحوال لتفوق النصارى ، وهيمنتهم على البقية الباقية من بلاد المسلمين بعد أن احكم النصارى قبضتهم على سائر الأنحاء المحيطة بغرناطه ، وبعد أن استولوا على كافة المدن والثغور ، التي تربط بين المسلمين واخوانهم من أهل المغرب ، من الطبيعي وأن أبدت غرناطه صمودا وبسالة في مقاومة النصارى ، إلا أن من المحتم أن تسقط أخيرا في أيدي النصارى ، وكانوا أكثر عددا وعدة ، وأوفر مؤنة، وأكثر امدادات ، فسقطت المدينة في محرم ٨٩٧ هـ / نوفمبر ١٤٩١ م .

وتجدر الاشارة إلى أنه حينما دخل الأسبان النصارى إلى غرناطه ، حرصوا على اضفاء الطابع الصليبي على هذه النهاية المأساوية للمسلمين ، فعمدوا إلى رفع الصليب على أعلى برج في قصور الحمراء ، كما رفعوا إلى جانبه علم القديس

---

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق : ص ٢٢٩ ومابعدها .

يعقوب ، في الوقت الذي ردد فيه النصارى من الرهبان نشيدا دينيا ، يمجدون القديس يعقوب[1] .

وبهذا يتبين لنا وضوح الصفة الصليبية التي اضفاها ملوك وأمراء الأسبان على هذه الحرب ، ومدى ماحققه رجال الدين من الرهبان والأساقفة والمطارنة من جهد في قيام الجمعيات الدينية المحاربة ، اذ لم يعد الرهبان منعزلين في أديرتهم ، بل أصبحوا في مقدمة المقاتلين في ميادين الحرب مع المسلمين ، وبهذا قوي جانب جماعات الفرسان الدينية ، واتسع نشاطها في محاربة المسلمين حتى انتهى الأمر بخروجهم عن الأندلس ، وكان قدرا مقدورا .

(١) ستانلي لينبول : قصة العرب في أسبانيا ص ٢١٦ ـ محمد عنان : نهاية الأندلس ص ٢٦٠ ـ شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ٢٨٢ .

مصادر ومراجع البحث

أولا : المصــــادر :

- الحميري : محمد بن عبد المنعم (ت تقريبا ٧١٠ هـ)
الروض المعطار في خبر الأقطار . تحقيق احسان عباس . مؤسسة ناصر للثقافة . بيروت . ط الثانية ١٩٨٠ م .
- ابن الخطيب : لسان الدين محمد (ت ٧٧٦ هـ) .
أعمال الاعلام . تحقيق ليفي بروفنسال . دار الكشوف . ط الثانية ١٩٥٦ م .
- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك بن محمد (حيا ٥٩٤ هـ)
المن بالامامه . تحقيق عبد الهادي التازي . دار الغرب الاسلامي بيروت . ط الثالثة ١٩٨٧م .
- الضبي : أحمد بن يحيي (ت ٥٥٩ هـ)
بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي القاهرة . ١٩٦٧ م .
- ابن عذاري : أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ هـ) ،
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . الجزء الخاص بالموحدين دار الغرب الاسلامي . ط الأولى ١٩٨٥ م .
- المراكشي : عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد العريان ومحمد العربي دار الكتاب . الدار البيضاء ، ط السابعة ١٩٧٨ م .
المقري : أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ) .
نفح الطيب . ج ٤ تحقيق احسان عباس . دار صادر . بيروت ١٩٦٨ م .

ثانيا : المراجـــع :

- خليل السامرائي : علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية والدول الاسلامية وزارة الثقافة والاعلام . بغداد ١٩٨٥ م .
- ستانلي لينبول : قصة العرب في أسبانيا . ترجمة علي الجارم . دار المعارف . القاهرة .
- سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ج ١ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ط الثانية ١٩٨١ م .
- شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ١٩٨٣ م .
- عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي . دار القلم بيروت . ط الثانية ١٩٨١ م .
- عبده محمد عواجي : الخلافات السياسية في الدولة النصرية ودورها في سقوط الأندلس (رسالة ماجستير نوقشت بجامعة الامام محمد بن سعود بالرياض عام ١٤١٠ هـ . والرسالة لم تنشر) .
- قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب . الكويت . ١٤١٠ هـ .

- لطفي عبد البديع : الاسلام في أسبانيا . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ط الثانية ١٩٦٩ م .
- محمد عنان : ١ ـ دولة الاسلام في الأندلس عصر المرابطين والموحدين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط الأولى ١٣٨٤ هـ .
٢ ـ نهاية الأندلس . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ط الثالثة ١٣٨٦ هـ .
- نورمان كانتور : التاريخ الوسيط . القسم الثاني . ترجمة وتعليق . قاسم عبده قاسم . دار المعارف . القاهرة . ط الثانية ١٩٦٩ م .
- هشام أبو رميله : علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية دار الفرقان . عمان . ط الأولى ١٩٨٤ م .
- يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة محمد عنان مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر والقاهرة ج ٢ ط الثانية .

ومن الدوريـــات :

- ابراهيم علي طرخان : المسلمون في فرنسا وايطاليا . مجلة كلية الآداب . جامعة القاهرة . مجلد ٢٣ . الجزء الثاني ـ ١٩٦١ م .